البيت المرواني

هشـــام بن عبد الملك

١٠٥_١٢٥هـ / ٧٢٤_٧٤٣م

هو **هشام بن عبد الملك** بن مروان بن الحكم القرشي الأموي الدمشقي. (٧١-١٢٥ هـ) (٦٩١ م - ٧٤١ م) حكم من سنة (١٠٥-١٢٥ هـ/٧٢٤-٧٤٣ م)، وأمه فاطمة بنت الأمير هشام ابن إسماعيل بن هشام أخي خالد: ابني الوليد بن المغيرة المخزومي وكان جميلاً أبيض مسمناً أحول خضب بالسواد، ذكر الذهبي: أن مصعب الزبيري قال: زعموا أن عبد الملك رأى أنه بال في المحراب أربع مرات فدس من سأل ابن المسيب عنها، فقال: يملك من ولده لصلبه أربعة فكان هشام آخرهم وكان حريصاً جماعاً للمال عاقلاً حازماً سائساً، فيه ظلم مع عدل، روى أبو عمير بن النحاس عن أبيه، قال: كان لا يدخل بيت المال لهشام شيء حتى يشهد أربعون قسامة لقد أخذ من حقه ولقد أعطى الناس حقوقهم[١].

مثلت خلافة يزيد بن عبد الملك مرحلة دقيقة في تاريخ الدولة الأموية، فقد رسمت خط النهاية لهذه الدولة، ذلك أن الخليفة الجديد **هشام بن عبد الملك**، الذي بويع له بعد وفاة أخيه كان عاجزاً عن القيام بإصلاح ما فسد، وترميم ما انهار، وإيقاف عجلة التدهور، فقد أصبح الأمر فوق طاقته وخرج عن إرادته بالرغم من اتصافه بالحزم وحسن الإدارة والتدبير، وبالرغم من الجهود، التي بذلها للحفاظ على وحدة الدولة وترميم الحكم الأموي، ومن الإنصاف الإشارة إلى أن الخلافة الأموية استردت في عهد هشام الكثير من حيويتها ومهابتها، ويمكننا أن نعتبر الفترة الطويلة، التي تسلم فيها هشام زمام المسؤولية تشبه صحوة ما قبل الموت.

تسلم هشام الحكم وهو في حوالي الرابعة والثلاثين من عمره، وأقام في **الرصافة** شمالي بلاد الشام وكان حازماً، حليماً، طيب السمعة، انجرف كغيره من خلفاء بني أمية في تيار التعصب القبلي، لكن مصلحة الدولة عنده فوق الاعتبارات القبلية، وكان الجهاز الإداري في عهده انعكاساً لشخصيته، حيث عهد بالحكم إلى رجال مخلصين، وأصحاب كفاءة، محاولاً، بذلك إصلاح ما أفسده أخوه دون جدوى.

في عهده بلغت الدولة الإسلامية أقصى اتساعها، حارب البيزنطيين، واستولت جيوشه على ناربونه وبلغت أبواب بواتيه (فرنسا) حيث وقعت معركة بلاط الشهداء سنة ١١٤ هـ. وتزايدت في عهده العصبية القبلية بين المضرية واليمانية، واشتعلت فتن وثورات عديدة في أنحاء الدولة: ثورة الخوارج، والشيعة في الكوفة (بقيادة زيد بن علي بن الحسين)، والبربر في المغرب؛ وكذلك اضطربت الفتن في بلاد ما وراء النهر، وقد قضى عليها جميعاً بحنكته ودهائه وقوته.

ترجمت في عهده الكثير من المؤلفات والمصنفات العلمية، وحرص على إصلاح الزراعة وتوابعها، واهتم بباقي المنشآت العمرانية، تميز عهده بسيادة الأمان في بلاد الشام وأرجاء البلاد الإسلامية.

توفي هشام بالرصافة في شهر ربيع الآخر عام ١٢٥هـ/شهر شباط عام ٧٤٣م، وكانت مدة خلافته تسع عشرة سنة وستة أشهر وأياماً. وخلفه الوليد بن يزيد.

---

١ - الإمام الذهبي، سير أعلام النبلاء، النسخة الرقمية.

أولاً : الأوضـــاع الداخليـــة

ثورة زيد بن علي بن الحسين سنة ١٢١ هـ :

بعـد القضـاء على ثـورة المختار الثقفي في الكوفة سنة ٦٧ هـ ، لم يقـم الشيعة فيها بثورات على الدولة الأمويـة، ولعل السبب في ذلك الهزائم المتلاحقة والخسائر التي مرت بهم في هذا الصدد، ثم افتقارهم إلى زعامة قوية يلتفون حولها من ناحية ثانية، كما أن العراق التي هي موطن حركاتهم قد شهدت حكم ولاة أقويـاء عرفـوا بالحـزم والقسوة مـع الخارجين على الدولـة، مثل: الحجـاج بن يوسـف، كل ذلك جعلهم يستكينون للهدوء ولكن إلى حين، فجمرة الثورة والتمرد على الحكم الأموي لم تخب في أنفسهم قط، فلما وجـدوا الفرصـة سانحة اغتنامها، وكان هذا حالهم مع قائد الثورة الجديـد التي هبت في وجه هشام بن عبد الملك سنة ١٢١ هـ.

يعد **زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه** من كبار آل البيت وعلمائهم، وكان يحدث نفسه بالخلافة ويرى أنه أهل لها وكان هشام بن عبد الملك يخشاه لفضله، وعلمه، وفصاحته، ومكانتـه بين الناس. **خـرج زيد على هشام** ، ثم أتى الكوفة، فجعل الشيعة يلتجؤون إليه ويقولون له : « إنـا لنرجـو أن تكون المنصور ، وأن يكون هذا الزمـان الذي يهلك فيه بنوأمية » كان من الطبيعي أن يكون زيد محل رصد هشام وأن يكون وجوده في الكوفة بخاصة مصدر قلق عليه، فأوعز إلى عامله على العراق ، يوسف بن عمر الثقفي، بطرده منها فمازال به يوسف حتى أخرجه، ولكن الشيعة ساروا خلفه وقالوا له : « أيـن تذهـب عنا ؟ومعك مائة ألف رجـل من أهل الكوفة يضربـون دونك بأسيافهم غـداً ؟! نفس النغمة القديمة التي طالما خدع بها أهل العراق آل البيت وعلى الرغم من أن زيداً أبدى شكوكه فيهم حتى بعد أن أعطوه عهودهم، ومواثيقهم، وقال لهم : « إني أخاف أن تخذلوني وتسلموني كفعلكم بأبي وجدي »

انتشر أمر زيد ووصل خبر دعوته الناس إلى البيعة في البصرة، وواسط، والموصل، والمدائن، وخراسان، والري، وبلغت أخباره يوسف بن عمر الثقفي وكان **بالحيرة** فأدرك خطورتها، وكان زيد قد واعد أصحابه على الخروج ليلة الأربعاء أول ليلة من صفر سنة ٢٢ هـ، « انظر تفاصيل ذلك في الخارطة القادمة » فقرر يوسف أن يحول دون ذلك ، فأمر الحكم بن الصلت نائبه على الكوفة أن يدعو الناس لاجتماع في المسجد الأعظـم وهـدد كل من يتخلف منهـم وكان ذلك قبل موعد خـروج زيد بيوم واحد، فهرع أهـل الكوفة إلى المسجد فحاصرهم يوسف بن عمر فيه، وأصبح زيد فلم يجد معه من خمسة عشر ألفاً بايعوه سوى مائتين وثمانيـة عشـر رجلاً فلما رأى خذلان الناس إياه قال لأحد أنصاره نصر بن خزيمة: « أتخاف أن يكونوا قد جعلوهـا حسنيـة » يشير الي حادثة جده الحسين وهم حقاً قـد فعلوها حسينية وتركوه يواجه قوات يوسف ابن عمر الثقفي في هذا العدد القليل كما فعل أسلافهم بجده الحسين يواجه قوات عبيد الله بن زياد .

ثورة زيد بن علي بن الحسين سنة ١٢١ هـ

٢ جموع من أهل المدائن والبصرة وواسط والموصل وخراسان تلتف حول حركة زيد بن علي في الكوفة .

٤ خرج زيد بن علي ومن وافقه على مذهبه يوم الأربعاء ١ صفر ١٢٢هـ، وأرسل بعض فرسانه ينادون في نواحي الكوفة بشعار الثورة: يا منصور يا منصور، ومع ذلك لم يجتمع عنده إلا ٣١٨ رجلاً فقط من أصل ٤٠,٠٠٠، ومع ذلك أصر زيد بن علي على مواصلة الثورة والخروج، حتى كتب الله له الشهادة بعد بسالة أذهلت الخصوم .

١ غضب الخليفة الأموي **هشام بن عبد الملك** على والي العراق **خالد بن عبد الله القسري** بسبب وشايات وسعايات ظالمة في حق خالد، فقام بعزله وكلف مكانه رجلاً من ألد أعداء خالد القسري وهو **يوسف بن عمر الثقفي** وكان والياً على اليمن، وكان يحب أن يتشبه بالحجاج وكان من قرابته، فكان أول ما فعله يوسف عندما دخل العراق القبض على **خالد القسري** والتحفظ على كل أمواله ومحاسبته عليها. وفي أثناء المحاسبة ادعى البعض على خالد أنه قد أودع جزءاً من ماله وديعة عند **زيد بن علي**، فأرسل للخليفة هشام بذلك فألح على **زيد بن علي بالتوجه إلى الكوفة** ليتحقق من هذه التهمة، وبالفعل ذهب زيد بن علي **للكوفة** واستبانت براءته من تلك التهمة، لكن زيد بن علي ظل مقيماً بالكوفة لبعض الوقت ولم يعد فور الانتهاء من القضية. عندما علم الشيعة بالكوفة والعراق عموماً أن زيد بن علي بن الحسين مقيم بالكوفة؛ انهالوا عليه من كل حدب وصوب بالألوف يبايعونه ويقسمون بين يديه بالقتال حتى الموت وزينوا له الخروج حتى اجتمع عنده ديوان به أسماء أربعين ألف مقاتل.

٣ قرر **زيد بن علي** أن يقدم موعد قيام الثورة فيجتمع مع قادة الشيعة ويطلعهم على خطته للحركة وتعجيل ميعاد الخروج. وعندها فوجئ زيد بن علي بسؤال غريب جاءه من قادة الشيعة حيث قالوا له: ما تقول في **أبي بكر وعمر** فدعا لهما وترحم عليهما وقال: ما أدركت أحداً من أهلي إلا يترحم عليهما ويستغفر لهما، وإن كنا نحن أحق بالأمر منهما إلا أنهما حكما بالكتاب والسنة وعدلا فيما حكما، فقال عندها قادة الشيعة: فلمَ تقاتل هؤلاء إذاً؟ فقال زيد: هؤلاء ليسوا كهؤلاء، إنما نقاتل الذين ظلموا الناس وظلموا أنفسهم، فإن تسمعوا يكن خيراً لي ولكم، وإن تأبوا فلست عليكم بوكيل. فعندها قام قادة الشيعة من عنده وقالوا له: **إن إمامنا هو جعفر الصادق بن محمد الباقر**. وكان الباقر قد مات سنة ١١٥هـ، فقال لهم زيد ابن علي: رفضتموني، رفضتموني، ومن يومها تسمى شيعة الكوفة بالاثنى عشرية والرافضة، أما باقي الشيعة الذين ظلموا مع زيد فتسموا بالزيدية. وهذا الضغط أدى **بزيد** لأن يستعجل بالخروج، وحدد موعداً للخروج يوم الأربعاء ١صفر ١٢٢هـ. ولكن هذه العجلة أدت لسهولة كشفها.

ثانياً : الفتوحات في عهد هشام بن عبد الملك

لم تعد هناك فتوحات واسعة كالتي حدثت أيام الوليد وإنما كانت غزوات يحدث فيها تقدم قليل ثم يعود المسلمون على إثرها إلى ثغورهم أو تُفتح رقعة صغيرة من الأرض، أو بعض الحصون، أو يحدث قتال بسبب نقض العهد من قبل أعداء المسلمين الأمر الذي يضطر فيه المسلمون إلى معاودة قتالهم وإجبارهم إلى طلب الصلح ثانية ودفع الجزية .

أ: أرمينيا وأذربيجان

كثر الغزو في **أرمينيا وبلاد اللان** أيام **هشام بن عبد الملك** واشتهر من القادة : الحجاج بن عبد الملك، والجراح بن عبد الله الحكمي، ومسلمة بن عبد الملك، وأشرس بن عبد الله السلمي، والحارث بن عمرو الطائي، وإسحاق بن مسلم العقيلي، ومروان بن محمد، فقد غزا الحجاج بن عبد الملك بلاد اللان فصالح أهلها أن يؤدوا الجزية إلا أنهم نقضوا العهد فغزاهم مسلمة بن عبد الملك من جهة باب الأبواب وهزمهم عام ١١٠هـ ، وسار الترك إلى **أذربيجان** فلقيهم الحارث بن عمرو عام ١١٢هـ فردهم على أعقابهم مهزومين، وتحركوا من جهة بلاد اللان فلقيهم الجراح بن عبد الله الحكمي فيمن معه من أهل الشام، وأذربيجان في العام نفسه واستشهد رحمه الله هو ومن معه من الجند **بأردبيل** وأخذ الترك مدينة أردبيل، فوجه هشام بن عبد الملك أخاه مسلمة في شتاء بارد غزير المطر والثلوج فسار في أثرهم حتى تجاوز **باب الأبواب** فخلف عليها الحارث بن عمرو الطائي.

وعاد إليهم مسلمة في عام١١٣هـ، ففرق جنده في أرضهم فقتلوا وسبوا، وكان ممن قتلوا ابن خاقان الترك، فتأثر خاقان لما حلّ بابنه فتقدم إلى مسلمة إلا أنه هُزم ١١٤هـ ورجع مسلمة عن الباب، وعاد الترك إلى نقض العهد فأرسل إليهم مروان بن محمد بعثين عام ١١٧هـ الأمر الذي جعلهم يقرون بالجزية ولم يلبثوا أن نقضوا العهد فغزاهم عام ١٢٠هـ إسحاق بن مسلم العقيلي ومروان بن محمد الذي افتتح بلاد السرير فدانت له وأدت الجزية عام ١٢١هـ، وتوفي في ذلك العام مسلمة بن عبد الملك الذي دوخ الروم والترك.

اللاّنُ: آخره نون: بلاد واسعة في طرف أرمينية قرب باب الأبواب مجاورون للخَزَر، والعامة يغلطون فيهم فيقولون علاّن، وهم نصارى تُجْلَب

قال الفيروزآبادي: واللاَّنُ: بلادٌ وأُمَّةٌ في طَرَفِ إرْمِينِيَةَ... . القاموس المحيط

الصراع على أرمينية وأذربيجان في عهد هشام بن عبد الملك

في سنة ١١٢ هـ اجتمع الخزر والترك من ناحية اللان لقتال المسلمين، فلقيهم الجراح بن عبد الله الحكمي مع أهل الشام، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وصبر الفريقان، واستشهد الجراح وكثير ممن كان معه بمرج أردبيل، فطمع الخزر وأوغلوا في البلاد حتى قاربوا الموصل، فأرسل هشام بن عبد الملك سعيداً الحرشي لقتال الخزر والترك، فكان لا يمر بمدينة إلا ويستنهض أهلها فيجيبه من يريد الجهاد، حتى التقى بأصحاب الجراح وساروا معه، فالتقى بالخزر ليلاً وهم نيام فهاجمهم مع الفجر، فما بزغت الشمس حتى قتلوا جميعاً غير رجل واحد، ثم سار الحرشي إلى الخزر المجتمعين في مكان آخر فباغتهم وقتلهم، ثم حث ابن ملك الخزر الجنود على معاودة القتال فاجتمع معه عساكر كثيرة، فسار الحرشي إليه فالتقيا بأرض برزند، وصبر المسلمون حتى ولى الخزر الأدبار منهزمين، ثم تتابعت حملات الخزر وكانوا ينكسرون في كل مرة.

قال الحموي: قد كان مَسْلَمة بن عبد الملك وصل إلى هذا الموضع وملك هذه القلعة وأسكنها قوماً من العرب إلى هذه الغاية يحرسون هذا الموضع، وكانت أرزاقهم تحمل إليهم من تفليس، وبين هذه القلعة وتفليس مسيرة أيام. ولو أن رجلاً واحداً في هذه القلعة لمنع جميع ملوك الأرض أن يجتازوا بهذا الموضع لتعلقها بالجو وإشرافها على الطريق والقنطرة والوادي، وكان صاحب اللان يركب في ثلاثين ألفاً، هكذا ذكر بعض المؤرخين، وأما أنا الفقير فسألتُ مَن طَرَقَ تلك البلاد فخبرني بما ذكرته أوّلاً... . معجم البلدان.

ب: قتال الترك في عهد هشام بن عبدالملك

قال ابن كثير: **وفي سنة ١١٠** من الهجرة النبوية فيها قاتل **مسلمة بن عبد الملك ملك الترك الأعظم خاقان**، فزحف إلى مسلمة في جموع عظيمة فتوقفوا نحواً من شهر، **ثم هزم الله خاقان زمن الشتاء**، ورجع مسلمة سالماً غانماً، فسلك على مسلك ذي القرنين في رجوعه إلى الشام، وتسمى هذه الغزوة **غزاة الطين** وذلك أنهم سلكوا على مفارق ومواضع غرق فيها دواب كثيرة، وتوحل فيها خلق كثير، فما نجوا حتى قاسوا شدائد وأهوالاً صعاباً وشدائد عظاماً.

وفي هذا العام دعا **أشرس بن عبد الله السلمي نائب خراسان أهل الذمة بسمرقند** ومن وراء النهر إلى الدخول في الإسلام، ويضع عنهم الجزية فأجابوه إلى ذلك، وأسلم غالبهم، ثم طالبهم بالجزية فنصبوا له الحرب وقاتلوه، ثم كانت بينه وبين الترك حروب كثيرة [1].

ثم دخلت **سنة إحدى عشرة ومائة**: وفيها عزل **هشام بن عبد الملك أشرس بن عبد الله السلمي** عن إمرة خراسان وولى عليها **الجنيد بن عبد الرحمن**، فلما قدم خراسان تلقته خيول الأتراك منهزمين من المسلمين، وهو في سبعة آلاف فتصافوا واقتتلوا قتالاً شديداً، وطمعوا فيه وفيمن معه لقلتهم بالنسبة إليهم، ومعهم ملكهم خاقان، وكاد الجنيد أن يهلك، ثم أظفره الله بهم فهزمهم هزيمة منكرة، **وأسر ابن أخي ملكهم**، وبعث به إلى الخليفة.

ثم دخلت **سنة اثنتي عشرة ومائة**: ونهض أمير خراسان في طلب الأتراك أيضاً في جيش كثيف، فوصل إلى نهر **بلخ** ووجه إليهم سرية ثمانية عشر ألفاً، وأخرى عشرة آلاف يمنة ويسرة، وجاشت الترك وجيشت، فأتوا **سمرقند** فكتب أميرهم إليه يعلمه بهم، وأنه لا يقدر على صون سمرقند منهم، ومعهم ملكهم الأعظم خاقان، فالغوث الغوث. فسار الجنيد مسرعاً في جيش كثيف هو نحو سمرقند حتى وصل إلى شعب سمرقند وبقي بينه وبينها أربعة فراسخ، فصحبه خاقان في جمع عظيم، فحمل خاقان على مقدمة الجنيد فانحازوا إلى العسكر، والترك تتبعهم من كل جانب، فتراءى الجمعان والمسلمون يتغدون ولا يشعرون بانهزام مقدمتهم وانحيازها إليهم، فنهضوا إلى السلاح واصطفوا على منازلهم، وذلك في مجال واسع، ومكان بارز، فالتقوا وحملت الترك على ميمنة المسلمين وفيها بنو تميم والأزد، فقتل منهم ومن غيرهم خلق كثير، ممن أراد الله كرامته بالشهادة، وقد برز بعض شجعان المسلمين لجماعة من شجعان الترك فقتلهم. فناداه منادي خاقان: إن صرت إلينا جعلناك ممن يرقص الصنم الأعظم فنعبدك. فقال: ويحكم، إنما أقاتلكم على أن تعبدوا الله وحده لا شريك له، ثم قاتلهم حتى قتل رحمه الله.

---

١ - البداية والنهاية: ج٩ ص ٢٥٩.

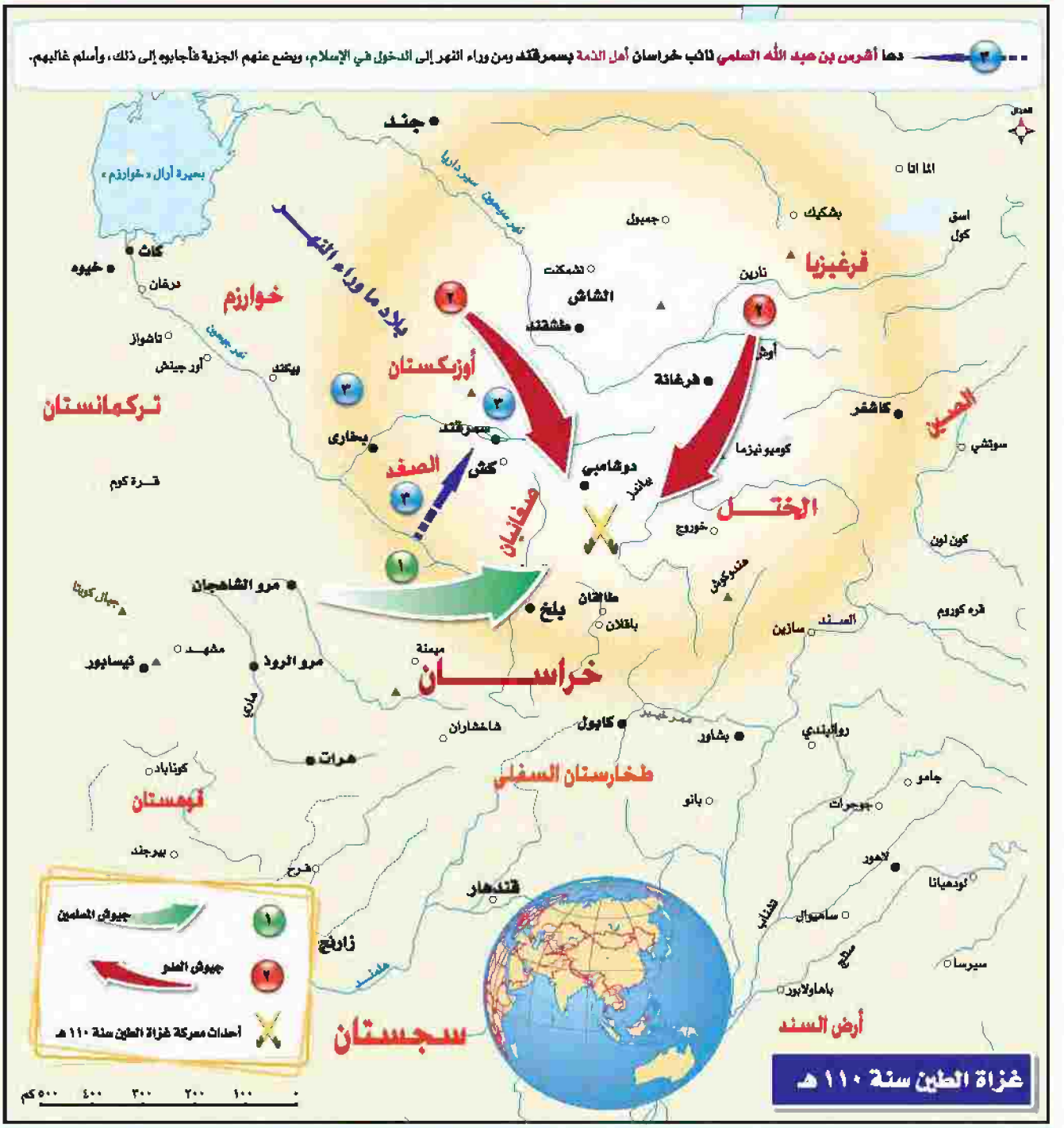

ثم تناحى المسلمون وتداعت الأبطال والشجعان من كل مكان، وصبروا وصابروا، وحملوا على الترك حملة رجل واحد، فهزمهم الله عـز وجـل، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ثم عطفـت الترك عليهم فقتلوا من المسلمين خلقاً حتى لم يبق سوى ألفين، فإنا لله وإنا إليـه راجعـون. وقتل يومئذ سودة بن أبجر واستأسـروا من المسلمين جماعة كثيرة فحملوهم إلى الملـك خاقان فأمر بقتلهم عن آخرهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وهذه الوقعة يقال لها: **وقعة الشعب**. وقد بسطها ابن جرير جداً. ابن كثير ، المصدر السابق

٤ القبائل العربية المنضمة مع الحارث تعود إلى رشدها وتنضم من جديد إلى الأمويين وينفرط عقد التحالف من جديد .

٥ والي خراسان، عاصم الهلالي يخبر الخليفة هشام بنفوذ المعارضة فيها، فأشار عليه أن يضمها إلى ولاية العراق تحت إمرة خالد بن عبد الله القسري، فاستجاب له وضمها إلى العراق وولّى عليها أخاه أسداً .

١ القبائل العربية في خراسان تحجم غالبيتها في أعمال الفتح بفعل حياة الاستقرار التي ألفها أتباعها، والسماح للقبائل الموالية للدولة السكن في مرو (مركز الولاية)، في حين تم نقل القبائل المعارضة إلى خارجها.

تحالف الأتراك والهياطلة وبعض قبائل العرب ضد الأمويين سنة ١١٦ هـ

٢ الخليفة هشام بن عبد الملك يمد الوالي الجديد عاصم بن عبد الله الهلالي، بعشرين ألفاً من المقاتلين ليسد الفراغ الذي تركه إحجام بعض القبائل العربية في هذا الشأن .

٣ الحارث بن سريج يقود تمرداً عسكرياً في سنة ١١٦ هـ، ويزحف نحو بلخ لابساً السواد تعبيراً عن نقمته على بني أمية، داعياً إلى كتاب الله وسنة رسوله والبيعة للرضا من آل محمد و يتحالف مع خاقان الترك، وتنضم إليه الهياطلة ثم تهاجم مرو .

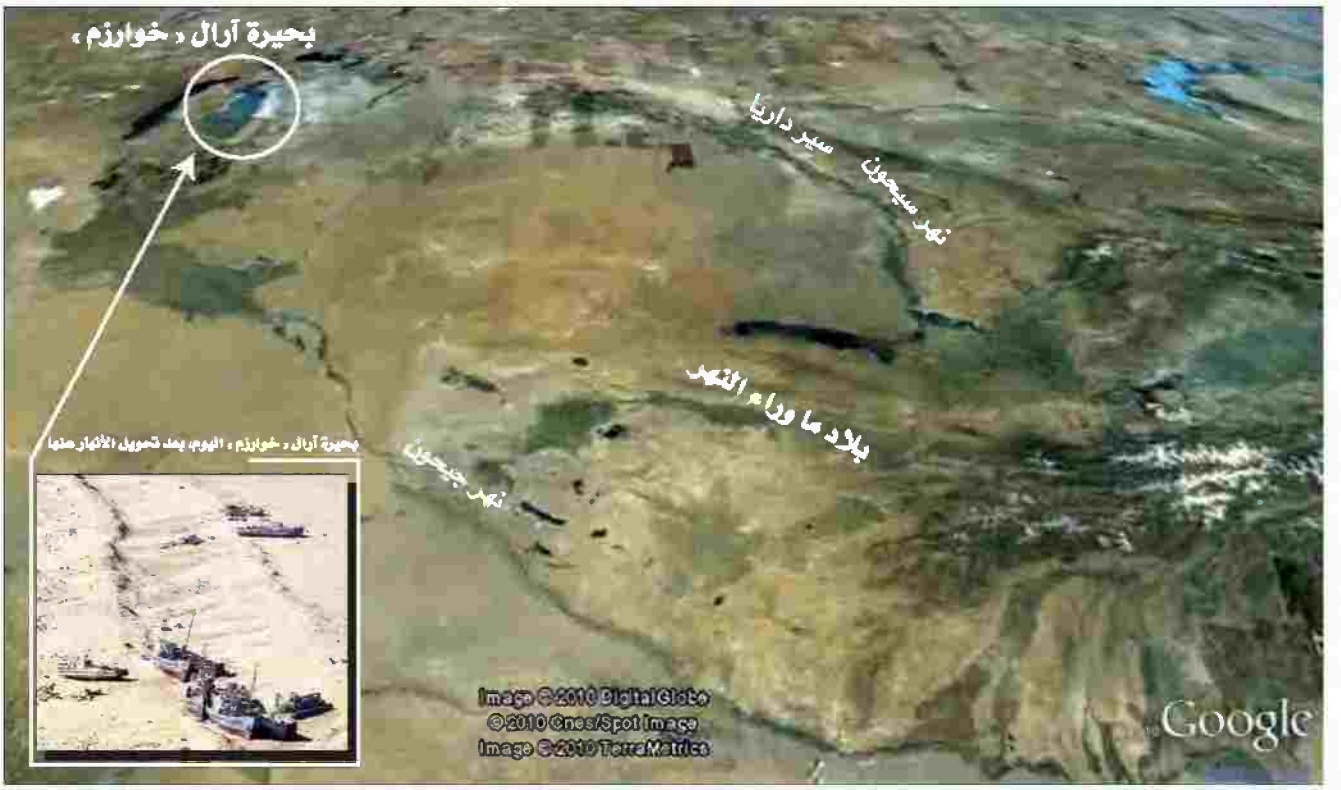

بلاد ما وراء النهر.. والنهر هنا هو نهر **جيحون**، وهو الحد الفاصل إلى حد ما بين الأقوام الناطقة بالفارسية، والتركية أي « إيران، وتوران »، فما كان في شماله أي ورائه من أقاليم سماها العرب ما وراء النهر وهو نهر جيحون، أما عن أصل تسميته فهو اسم أعجمي هو من جاحَهُ إذا استأصلَه ومنه الخطوب الجوائح، وقد سمي بذلك لاجتياحه الأراضين.

وأصل الاسم بالفارسية: هرون وهو اسم لوادي خراسان على وسط مدينة يقال لها جيهان فنسبَه الناس إليها وقالوا: جيحون على عادتهم في قلب الألفاظ.

قال الاصطخري: نهر جيحون يخرج من حدود بذخشان ثم تنضم إليه أنهار كثيرة من حدود الجبل ووخش، فيصير نهراً عظيماً ويمر على مدن كثيرة حتى يصل إلى خوارزم، ولا ينتفع به شيء من البلاد في ممره إلا خوارزم، ثم ينصب في بحيرة خوارزم التي بينها وبين خوارزم ستة أيام، وهذا النهر يجمد في الشتاء عند قوة البرد فيصير قطعاً، ثم تصير القطع قطعاً على وجه الماء حتى يلصق بعضها ببعض إلى أن تصير سطحاً واحداً على وجه الماء، ويثخن حتى يصير سمك ذراعين أو ثلاثة أذرع، ويستحكم حتى تعبر عليه العجلات والقوافل المحملة ولا يبقى بينه وبين الأرض فرق، والماء يجري تحت الجمد فيحفر أهل خوارزم بالمعاول آباراً يستقون منها ويبقى كذلك شهرين فإذا انكسر البرد تقطع قطعاً كما بدأ أول مرة ويعود إلى حالته الأولى، وهو نهر قتال قلّ أن ينجو منه غريق.

لم ينقطع القتال في بلاد ما وراء النهر أيام هشام بن عبد الملك، واشتهر من القادة كما ذكرنا آنفاً: أسد بن عبد الله القسري، ومسلم بن سعيد، والجنيد بن عبد الرحمن، وسعيد بن عمرو الحرثي ونصر بن سيار.

قال ابن كثير: وفي سنة ١١٩ هـ قتل **أسد بن عبد الله القسري ملك الترك الأعظم وهو خاقان**، وكان سبب ذلك أن أسد بن عبد الله **أمير خراسان** عمل نيابة عن أخيه خالد بن عبد الله على العراق، ثم سار بجيوشه إلى مدينة **خُتّل** فافتتحها، وتفرقت في أرضها جنوده يقتلون ويأسرون ويغنمون، فجاءت العيون إلى ملك الترك خاقان بأن جيش أسد قد تفرق في **بلاد خُتّل**، فاغتنم خاقان هذه الفرصة فركب من فوره في جنوده قاصداً إلى أسد بن عبد الله وتزود خاقان وأصحابه سلاحاً كثيراً، وقديداً مملحاً، وساروا في خلق عظيم، وجاء العيون إلى أسد فأعلموه بقصد خاقان له في جيش عظيم كثيف، فتجهز لذلك وأخذ أهبته، وأرسل من فوره إلى أطراف جيشه، فلمها عليه وأشاع بعض الناس أن خاقان قد هجم على أسد بن عبد الله فقتله وأصحابه، ليحصل بذلك خذلان الجنود فلا يجتمعون إلى أسد، فردّ الله كيدهم في نحورهم وجعل تدميرهم في تدبيرهم، وذلك أن المسلمين لما سمعوا بذلك أخذتهم حمية الإسلام وازدادوا حنقاً على عدوهم، وعزموا على الأخذ بالثأر، فقصدوا الموضع الذي فيه أسد بن عبد الله، فإذا هو حي قد اجتمعت عليه العساكر من كل ناحية، وسار أسد نحو خاقان حتى أتى جبل الملح، وأراد أن يخوض **نهر بلخ**، وكان معهم أغنام كثيرة. فكره أسد أن يتركها وراء ظهره، فأمر كل فارس أن يحمل بين يديه شاة وعلى عنقه شاة، وتوعد من لم يفعل ذلك بقطع اليد، وحمل هو معه شاة وخاضوا النهر، فما خلصوا منه جيداً حتى دهمهم خاقان من ورائهم في خيل دهم، فقتلوا من وجدوه لم يقطع النهر وبعض الضعفة، فلما وقفوا على حافة النهر أحجموا وظن المسلمون أنهم لا يقطعون إليهم النهر، فتشاور الأتراك فيما بينهم، ثم اتفقوا على أن يحملوا حملة واحدة ـ وكانوا خمسين ألفاً ـ فيقتحمون النهر، فضربوا بكؤساتهم ضرباً شديداً حتى ظن المسلمون أنهم معهم في عسكرهم، ثم رموا بأنفسهم في النهر رمية رجل واحد، فجعلت خيولهم تتخر أشد النخير، وخرجوا منه إلى ناحية المسلمين فثبت المسلمون في معسكرهم، وكانوا قد خندقوا حولهم خندقاً لا يخلصون إليهم منه، فبات الجيشان تتراءى ناراهما، فلما أصبحا مال خاقان على بعض الجيش الذي للمسلمين فقتل منهم خلقاً وأسر أمماً وأخذ أموالاً كثيرة وإبلاً موقرة، ثم إن الجيشين تواجهوا في يوم عيد الفطر حتى خاف جيش أسد أن لا يصلّوا صلاة العيد، فما صلوها إلا على وجل، ثم سار أسد بمن معه حتى نزل مرج بلخ، حتى انقضى الشتاء [1].

---

١ - ابن كثير، البداية والنهاية، النسخة الرقمية.

حينمـا وصـل المسلمون هرب خاقان بمن معه حتـى دخل بعض المدن فتحصن بها، فاتفق أن لعب بالنرد مع بعض أمرائه فغلبه الأمير فتوعده خاقان بقطع اليد، فحنق عليه ذلك الأمير ثم عمل على قتله فقتله، **وتفرقت الأتراك** فرقاً يعدو بعضهم على بعض، وينهب بعضهـم بعضـاً، **وبعث أسد إلى أخيه خالد** يعلمه بما وقع مـن النصر والظفر بخاقان، وبعث إليه بطبول خاقان ــ وكانت كباراً لها أصـوات كالرعـد وبشيء كثير من حواصله وأمتعتـه، فأوفدها خالد إلى أمير المؤمنين **هشام** ففرح بذلـك فرحاً شديداً، وأطلق للرسل أموالاً جزيلة كثيرة من بيت المال. ابن كثير ، المصدر السابق.

ب: الجبهة البيزنطية

استمر النضال بين المسلمين والبيزنطيين في عهد هشام الذي أحيا أعمال الجهاد، وقد اتخذ هذا الصراع صفة الحرب المقدسة من جانب البيزنطيين.

اهتم هذا الخليفة في بادئ الأمر بإنشاء الحصون في مناطق الحدود لامتصاص الغارات البيزنطية من جهة، واتخاذها قواعد انطلاق لغزو الأراضي البيزنطية من جهة أخرى، فأنشأ ستة حصون على الطريق العسكري الممتد بين **أنطاكية حتى المصيصة** كما رمم حصن ملطية.

وبعد عام من خلافته درج المسلمون على الإغارة سنوياً على المنطقة، وفتحوا عدة مدن، وحصون منها خنجرة، خرشنة، قيصرية، وصمالو، وحاصروا عدة مدن أخرى، منها: دور يليوم، ونيقية، وطوانة، وبرجمة. كما نفذوا حملات بحرية إسلامية ضد الجزر، مثل: قبرص، وصقلية.

كان رد الفعل البيزنطي تجاه هذا النشاط الإسلامي محدوداً بفعل الظروف الداخلية التي كانت تمر بها الإمبراطورية، وتتمثل بالصراع مع عبدة الأيقونات مما أعطى الفرصة للخليفة الأموي لمواصلة ضغطه العسكري وحدث في عام ١٢٢هـ ٧٤٠م، أن توغلت قوة إسلامية باتجاه آسيا الصغرى، وحاصرت ربض أكرن (أكرونيون) القريبة من عموريه، فخرج **ليو الثالث** بنفسه على رأس جيش بيزنطي للتصدي للمسلمين واصطدم بهم في معركة شرسة حقق فيها انتصاراً واضحاً وتكبد المسلمون خسائر جسيمة وارتبطت بهذا المعركة قصة البطل التركي المعروف بعبد الله البطّال الذي قُتل في أثناء القتال ودفن في قرية تقع جنوب أسكي شهر ولا يزال قبره قائماً حتى اليوم.

تعد هذه المعركة آخر المعارك الكبرى بين الأمويين والبيزنطيين، وترتب عليها أن جلا المسلمون عن الجزء الغربي من آسيا الصغرى، وتراجعوا نحو الشرق وكما تراجعت حدة الحملات المندفعة وما حدث من نشاط عسكري بين أعوام (١٢٣ - ١٢٥هـ ـ ٧٤١ - ٧٤٣م)، لم يخرج عن كونه صوائف عادية لم تترتب عليها أي نتائج هامة .

وماجرى من تخليص القسطنطينية من هجمات المسلمين وارتداد هؤلاء عن آسيا الصغرى يعد خاتمة مرحلة من مراحل النضال بينهم وبين البيزنطيين، وظلت المنطقة بفضل نظام الثغور البيزنطي جزءاً لايتجزأ من الإمبراطورية البيزنطية[١] .

---

١ - د . محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة الأموية، ص ١٥٩ - ١٦٠ .

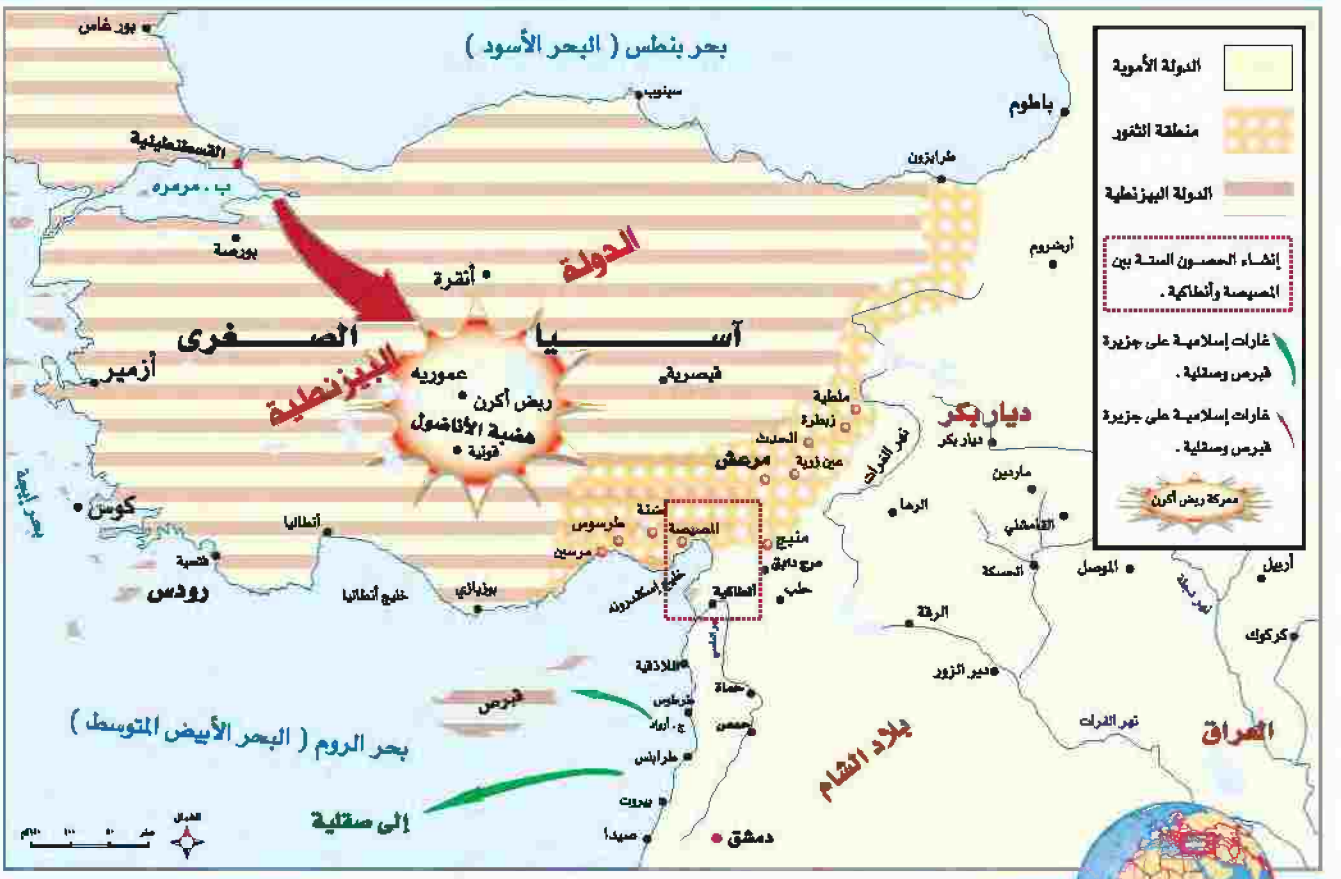

الجبهة البيزنطية في عهد هشام بن عبد الملك

ليو الثالث (٦٨٥ - ٧٤١م) بالإنجليزية Leo III the Isaurian، إمبراطور روماني على الإمبراطورية الرومانية الشرقية « البيزنطية » في الفترة من (٧١٧-٧٤١م) ، وقد استمد ليو الثالث لقبه من إقليم إسوريا Isauris في قليقية. ومن أشهر أعماله تحطيم الصور والتماثيل داخل الكنائس وتحريم تصوير الشخصيات الدينية المقدسة. وقد تشبعت نفس ليو الثالث وهو في صباه بآسيا بفكرة رواقية عن الدين سرت إليه من المسلمين، واليهود، والمانيين، واليعاقبة، ومن تعاليم بولس ، وكلها تذم عكوف جمهرة النصارى على عبادة الصور والتماثيل، والحرص الشديد على المراسم والطقوس، والاعتقاد بالخرافات. ولقد نهى العهد القديم في صراحة تامة (الآية الخامسة عشرة من الإصحاح الرابع من سِفر التثنية) المؤمنين على أن يضعوا: "تمثالاً منحوتاً صورة مثال ما، شبه ذكر، أو أنثى شبه بهيمة ما، مما على الأرض... الخ".

عملتان من الذهب تخصان ليو الثالث وابنه قنطسنطين الخامس

٢ بعد نقل الجنيد بن عبد الرحمن إلى خراسان، تولى إمرة السند **تميم بن زيد العتبي** وكان ذلك سنة ١١١ هـ، ولم يكن في كفاءة الجنيد فاضطربت أحوال البلاد وقامت الفتنة بين أهل السند والعرب، وبين العرب أنفسهم، ولما أوشكت البلاد على نشوب حرب داخلية قرر تميم مغادرة البلاد إلى العراق وقد مات بالطريق وعين خالد بن عبد الله القسري **الحكم بن عوانة الكلبي** سنة ١١٢هـ، فأحيا الجهاد وسار سيرة حسنة في السند وكان من عوامل نجاحه اختياره **عمرو بن محمد بن القاسم الثقفي** وقد أسند إليه الحكم بن عوانة قيادة الجيش، فتحرك عمرو بالجيش لإخماد الفتن فرجع من جولته منتصراً **فاستقرت الأوضاع في السند** ووصى أهلها بولاية الحكم ولقد بقي الحكم في إمارة السند حتى عام ١٢٢هـ حيث خرج على رأس جيش لإخماد الفتن التي ثارت في بعض مناطق السند وفي صحبته عمرو بن محمد بن القاسم الثقفي فاستشهد الحكم وانتصر جيشه على الأعداء ثم تولى ولاية السند عمرو بن محمد بن القاسم، فكان من أعماله بناء **مدينة المنصورة** لتكون حصناً للمسلمين عند أي هجوم من الأعداء وكانت لعمرو بن محمد أعمال مشكورة وتمتع بمحبة لأهل السند لشهرة أبيه فاتح السند .

ثورات الخوارج في الشمال الإفريقي في عهد هشام بن عبد الملك

د - جبهة شمالي إفريقيا

معركتا **الأسنام** على بعد مرحلة من القيروان، و**القرن** على بعد ٦ أميال منها أواخر (١٢٤هـ/٧٤٢م).

مع انتشار الإسلام بين الأمازيغ انخرط جلهم مع جيوش الفتح الإسلامي وشاركوا بعملية فتح الشمال الإفريقي كله والأندلس في أقل من نصف قرن، ومع ذلك فإن العلاقات بين العرب والأمازيغ لم يكن يسودها الصفاء بصورة دائمة، لأن الأمازيغ مال بعضهم إلى بعض الفرق الخارجة عن سلطة الدولة، مما جعل بعضهم ينحازون إلى مذهب الخوارج الصفرية أو الإباضية.

بدأ هذا التمرد في غربي البلاد عام (١٢٢هـ/٧٤٩م) بزعامة أحد **رجال مدغرة** من الخوارج الصفرية اسمه ميسرة السقّاء، وبعد مقتل ميسرة على يد أبناء عشيرته لأمور أنكروها عليه، وولّوا أمرهم خالد بن حميد الزناتي، الذي انتصر على الجيش الذي بعث به والي إفريقية عبيد الله بن الحبحاب بقيادة خالد بن حبيب في **موقعة الأشراف** (١٢٢هـ)، فأرسل الخليفة هشام بن عبد الملك جيشاً للقضاء على الثورة بقيادة كلثوم بن عياض الذي هزم أيضاً وقتل (١٢٣هـ)، وألهب هذا النصر الذي أحرزه **الخوارج** حماسة بقية إخوانهم، فثار الخوارج الصفرية من زناتة وهوارة في المنطقة الواقعة بين **قابس في إفريقية وطرابلس في ليبية** وهددوا العاصمة القيروان، لولا تمكن حنظلة بن صفوان، عامل هشام بن عبد الملك الجديد، من الانتصار على جيشين لهم بمعونة أهل القيروان في معركتين: معركة **الأسنام** على بعد مرحلة من القيروان، ومعركة **القرن** على بعد ٦ أميال منها أواخر (١٢٤هـ/٧٤٢م).

١ اشتعال شرارة الخوارج الصفرية على يد ميسرة السقاء.

٢ منطقة تأثر الخوارج الصفرية من زناتة وهوارة بثورة مدغرة.

٣ هشام بن عبد الملك يكلف واليه الجديد حنظلة ابن صفوان للقضاء على تمرد الخوارج.

جبهة بلاد الأندلس ومعركة بلاط الشهداء « بواتيه » سنة ١١٤ هـ

بعد وفاة عنبسة متأثراً بجراحه عند عودته من غزوة أرض الفرنجة سنة ١٠٧هـ/٧٢٥م، وارتد الجيش إلى الداخل وظهر الاضطراب في الجزيرة، وتعاقب ولاة عدة بعده حتى عيّن والي إفريقيا عبيدةُ بنُ عبد الرحمن السلمي عبدَ الرحمن بنَ عبد الله الغافقي والياً على الأندلس بموافقة الخليفة الأموي في دمشق هشام بن عبد الملك، فكانت هذه الولاية هي الثانية، فرحبت الأندلس بتوليته، وأحبه الجند لعدله ورفقه، وجمعت هيبته كلمة القبائل، فتراضت مضر وحمير، وعاد الوئام إلى الإدارة والجيش. وقام عبد الرحمن بزيارة الأقاليم المختلفة، ونظم شؤونها وعهد بإدارتها إلى ذوي الكفاية والعدل، وقمع الفتن والمظالم، وأعاد إلى النصارى كنائسهم وأملاكهم، وعدل نظام الضرائب على أساس العدل والمساواة، وضبط الإدارة، وأصلح الجيش مشاركاً فيه مختلف الولايات. وأعدّ وحدات قوية مختارة من فرسان البربر بقيادة نخبة من القادة العرب، وحصّن القواعد والثغور الشمالية.

نشأ وضع جديد عندما عقد دوق أكويتن (أكيتانيا) تحالفاً مع مينوسة الحاكم المسلم لولايات البيرينيه الشمالية وسبتمانيا موثقاً هذا الحلف بمصاهرة من دون موافقة عبد الرحمن، وكانت غاية التحالف مناوأة حكومة الأندلس، فأرسل عبد الرحمن حملة اجتاحت مناطق الثائر «مينوسة» الجبلية وقتلته وأسرت زوجته ابنة دوق أكيتانيا (لامبيجيا)، التي حُمِلَت إلى دمشق وزوجت هناك من أمير مسلم.

دفعت هذه الأحداث الفرنجة والقوط إلى التحرك لمهاجمة المواقع الإسلامية، مما دفع عبد الرحمن إلى إعداد جيش كبير لاجتياح مملكة الفرنجة كلها، وكان أكبر جيش سيره المسلمون إلى غاليسيا (غاليا - فرنسا) منذ الفتح، وبقصد الثأر لحملة السّمح بن مالك السابقة. وحشد عبد الرحمن قواته في (**بمبلونة**) جنوبي البيرينيه بعدما اخترق أراغون (الثغر الأعلى) ونافار (بلاد البشكنس) ثم عبر البيرينيه من ممرات باب شزروا (رونيسفال)، فاستولى على «آرل»، وتوجه إلى «بردال» وهَزم الدوق وتابع الجنود تقدمهم نحو الشمال مثقلين بالغنائم. واستنجد دوق أكيتانيا أودو بـ «شارل (كارل) مارتل» صاحب السلطة الحقيقية محافظ قصر ملك فرناة الصوري تيودوريك الرابع، وأحس كارل بخطر الهجوم العربي الإسلامي على دولته، التي يسعى إلى ترسيخها، فبادر بسرعة إلى جمع جيش كبير قاده لمواجهة العرب. والتقى الجيشان في موضع بين «تور» و«بواتييه» يبعد عشرين كيلو متراً شمال شرقي بواتييه. وحدثت معركة شرسة في أوائل ١١٤هـ وربيع ٧٣٢م، استشهد فيها قائد الجيش عبد الرحمن، وتراجع الجيش بعد ذلك، وأطلق العرب على موقع المعركة اسم «بلاط الشهداء»، على أن المعركة لم تكن فاصلة، ولم تحل دون حدوث غزوات أخرى لاحقاً [١].

---

١ - يوسف الأمير علي، موسوعة المعرفة، النسخة الرقمية للمجلد الأول، دار الفكر، دمشق - سوريا.

معركة بلاط الشهداء « بواتيه » سنة ١١٤ هـ بقيادة عبد الرحمن الغافقي

القصر (البلاط) القريب من موقعة « بلاط الشهداء » بالقرب من بواتييه بفرنسا

توغل يوسف بن عبد الرحمن، حاكم نربونة بعد سنتين (١١٦هـ/٧٣٤م) في حوض الرون، باتجاه الشمال، ولكن الغزوات اللاحقة كانت أقل عمقاً وأضيق نطاقاً. واستقر المسلمون في الأراضي التي حازوها بحملة يوسف بن عبد الرحمن مدة أربع سنوات، ردهم بعدها شارل مارتل إلى قاعدتهم نربونة، ولم يستطع فتحها إلى أن قام «بيبن» الفرنجي عام ٧٦١م باسترجاع نربونة وبذا سقط آخر معقل للمسلمين في أراضي غاليا أو (غاليش).

لم يولِ المؤرخون العرب والمسلمون بلاط الشهداء أهمية كبرى قياساً بمؤرخي الغرب، ولاسيما المحدثين منهم، الذين عدّوها معركة فاصلة في الصراع بين الإسلام والنصرانية، ردّ فيها الزحف الإسلامي عن غربي أوربا النصراني بأكمله. وقد كان عبد الرحمن الغافقي جندياً مجيداً ظهرت مواهبه الحربية في غزوات غاليا كما كان حاكماً قديراً بارعاً في شؤون الحكم والإدارة يعمل للإصلاح. وتجمع الروايات على رفيع صفاته وتقدير عدله وحلمه وتقاه. والمعروف عنه أنه كان من التابعين روى عن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وعبد الله بن عياض. [١].

---

١ – يوسف الأمير علي، موسوعة المعرفة، النسخة الرقمية للمجلد الأول، دار الفكر، دمشق – سوريا .

مرتسم للفنان كارل فان ستوبين لمعركة بلاط الشهداء

يعزو بعض المؤرخين إلى السبب المباشر لهزيمة المسلمين في المعركة هو الحصول على الغنائم التي جمعها المسلمون أثناء زحفهم من المدن التي مروا بها قبل المعركة الفاصلة، فالمراجع متفقة على أنّ الجيش الإسلامي كان يجر قوافل محملة بالغنائم والأسلاب من كل صنف، ولعل تعلق الجند بهذه الغنائم كان كبيراً، لأنهم حملوها معهم حتى نهر اللوار، ولو أحسنوا لبعثوا بها جنوباً إلى الأندلس، حتى يطمئنوا عليها، وتخلو أيديهم للعمل الجاد في المعركة، إنّهم حرصوا عليها فكان هذا الحرص العامل الرئيس والأساس لهزيمتهم، لأن عدوهم استشعر هذا الحرص منهم فعرف كيف يستغله لصالحه .

لقد كانت بواتييه " بلاط " في أواسط تشرين الأوّل ٧٣٢م، أواخر شعبان ١١٤هـ ، وتثبت المراجع تفوق المسلمين على أعدائهم في بدء المعركة، ثم حدث أن اندفعت فرقة من الفرنجة إلى خلف صفوف المسلمين، حيث أودع المسلمون غنائمهم، فخشي الكثير منهم أن يستولي الفرنجة عليها، فالتفت بعضهم وعاد إلى الخلف ليبعد الأعداء عنها، وهنا اضطربت، صفوف المسلمين، واتسعت الثغرة التي نفذ منها الفرنجة، ودار القتال بعنف وقوة فزلزل نظام المسلمين، وحاول عبد الرحمن جهده أن يثبت جنده، ويعيد النظام، أو يصرف الجند عن الهلع عن الغنائم فلم يوفق وأصابه سهم أودى بحياته، وكان ذلك بداية الهزيمة، إذا انهال الفرنجة على المسلمين من كل جانب، وصبر المسلمون، حتّى أقبل الليل فانتهزوا فرصة حلول الظلام، وتسلّلوا متراجعين إلى الجنوب على عجل، وكان ذلك في ٢٠ تشرين الأول ٧٣٢م أوائل شهر رمضان ١١٤هـ .

ومن نتائج بلاط الشهداء :تغيير مجرى التاريخ إلى حد كبير، ولم تحل هذه الصدمة دون إعادة الكرَّة على فرنسا، إذ إن الهزيمة وحدها لم تكن لتوقف المسلمين عند هذا الحد، بل، كانت لهم بعد كَّرات أعقبها النصّر والفتح، غير أن أهمية بلاط الشهداء ترجع إلى أن المسلمين ارتدوا عن فرنسا ولم يحاولوا إخضاعها تاماً ... ولو تحقق إخضاعها كاملة لزالت عصورها الوسطى المظلمة مبكراً، ولحقت بركب الحضارة والتقدم في الأندلس خلال عيشها في رحاب الإسلام، فلا غرابة إذ إن العديد من الكتّاب الغربيين الذين رأوا روعة الإسلام وحضارته أينما حل، اعتبروا نتيجة بلاط الشهداء نكبة كبيرة أصابت أوربة، وضربة عنيفة حرمتها من الحضارة المنيرة وكرامة الإنسان. د . الصلابي، الدولة الأموية، ص ٥٠٢ .